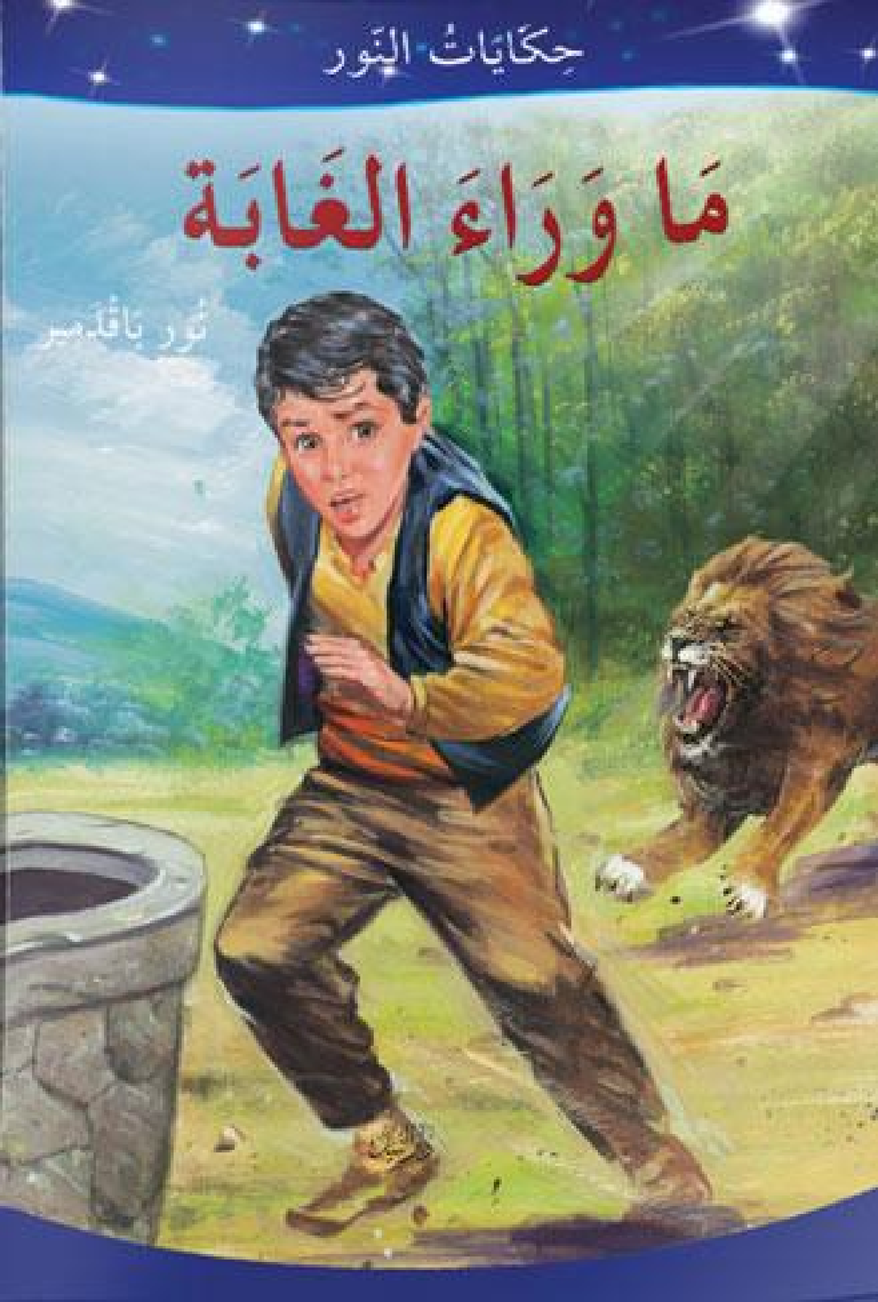
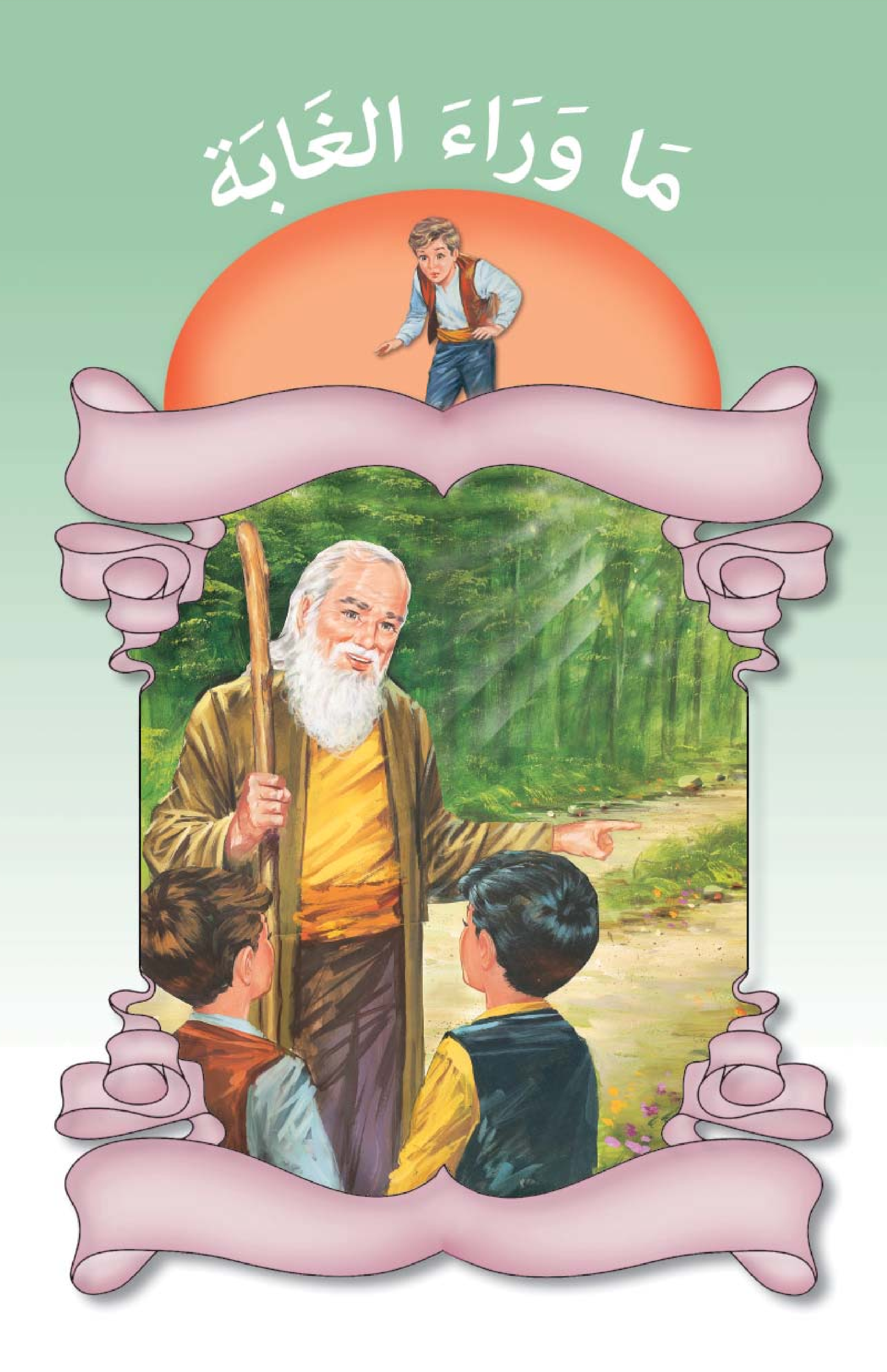

حِكَايَاتُ النُّور
مَا وَرَاءَ الغَابَة


مَا وَرَاءَ الغَابَةَ



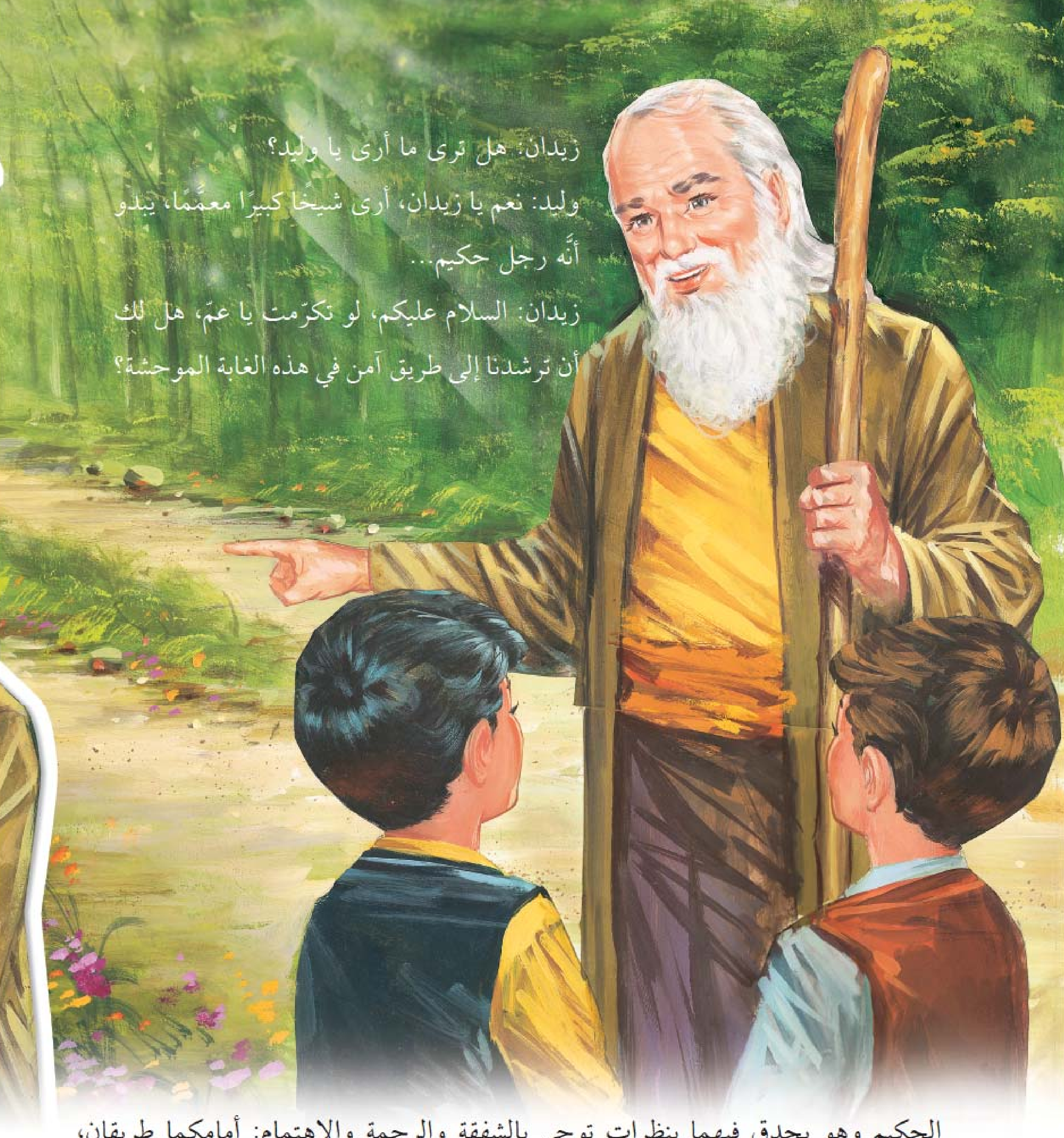
كلما غابت الشمس وأظلم الليل تحلّق أفراد الأسرة حول أبيهم، وكلهم آذان صاغية، ينتظرون بلهفة وشغف قصص والدهم الممتعة، كان الوالد يحكي لهم كل يوم قصة عن تلك الحديقة الساحرة التي تقع خلف غابة كثيفةٍ مظلمة.

يقع منزل هذه الأسرة هناك في تلك القرية الصغيرة الهادئة، وهو ليس عن تلك الغابة ببعيد، هناك شبّ "وليد" و"زيدان"، كان زيدان ولدًا خَلُوقًا بارًّا عاقلًا بينما كان وليد متكبِّرًا يلهو ويلعب هنا وهناك، لم ينسجم الأخوان ولم يتآلفا، وما من شيء يجمعهما سوى تلك القصص الماتعة التي يترقبونها كلّ مساءً.



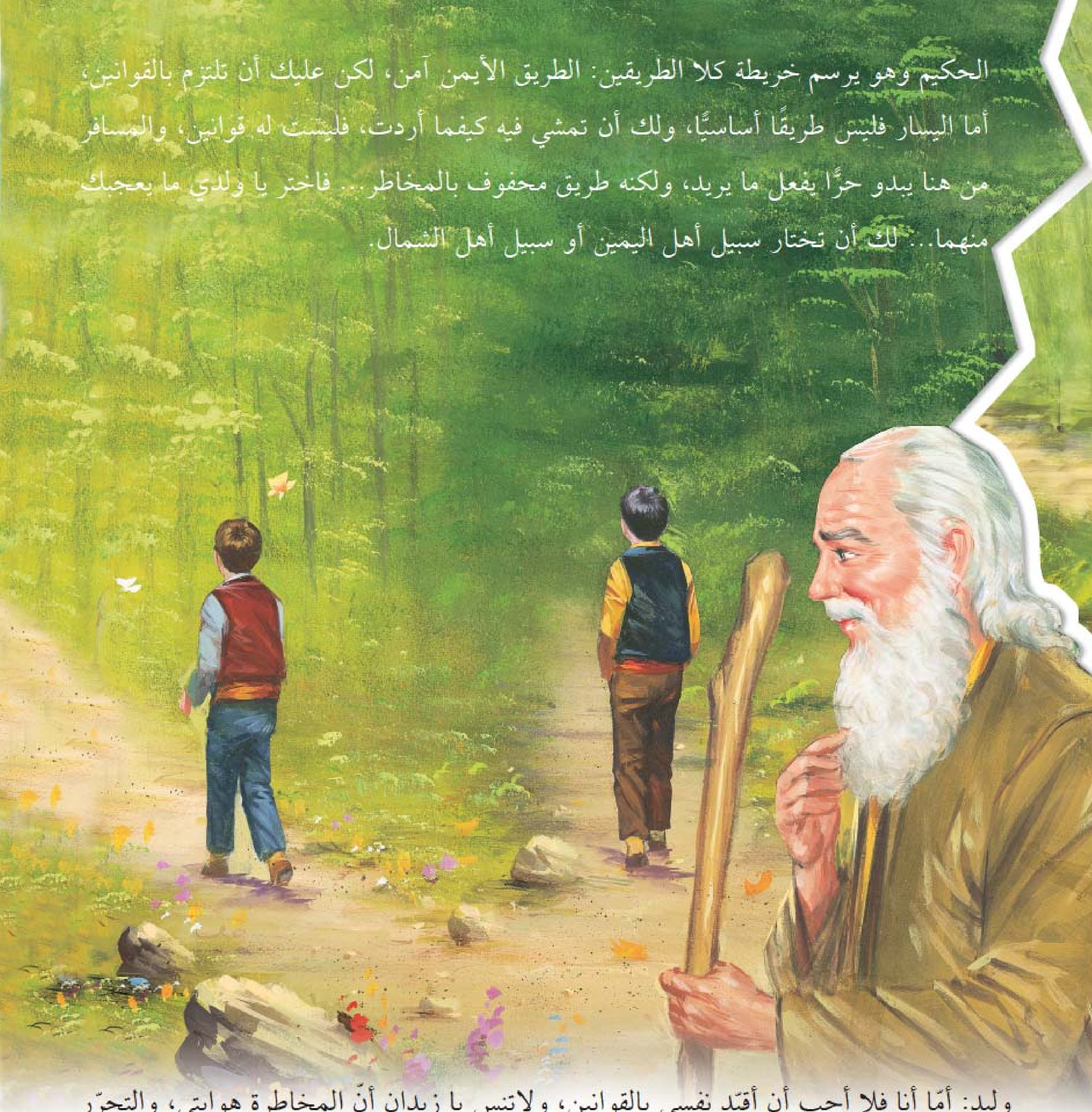
في يوم من الأيام تحمّس الأخوان وكان لديهما فضول كبير دفعهما إلى مغامرة للوصول إلى تلك الحديقة، ولم يكن خطر الغابة يخطر لهما على بال...

فانطلقا حتى إذا حالت الأشجار الشامخة بينهما ولا يكاد أحدهما يرى الآخَر، ألفيا أنفسهما في مفترق طرق...



الحكيم وهو يحدق فيهما بنظراتٍ توحي بالشفقة والرحمة والاهتمام: أمامكما طريقان، أحدهما آمن، والآخر خطِر.

زيدان: انصحنا يا عمّ، ودلّنا على الصراط المستقيم...



وليد: أمّا أنا فلا أحب أن أقيّد نفسي بالقوانين، ولاتنس يا زيدان أنّ المخاطرة هوايتي، والتحرّر من كل القيود وجهتي المفضّلة...

زيدان: ولكني أخشى المخاطرة، ولا أجد حرَجًا في قوانين المرور، فسأسلك طريق أهل اليمين.

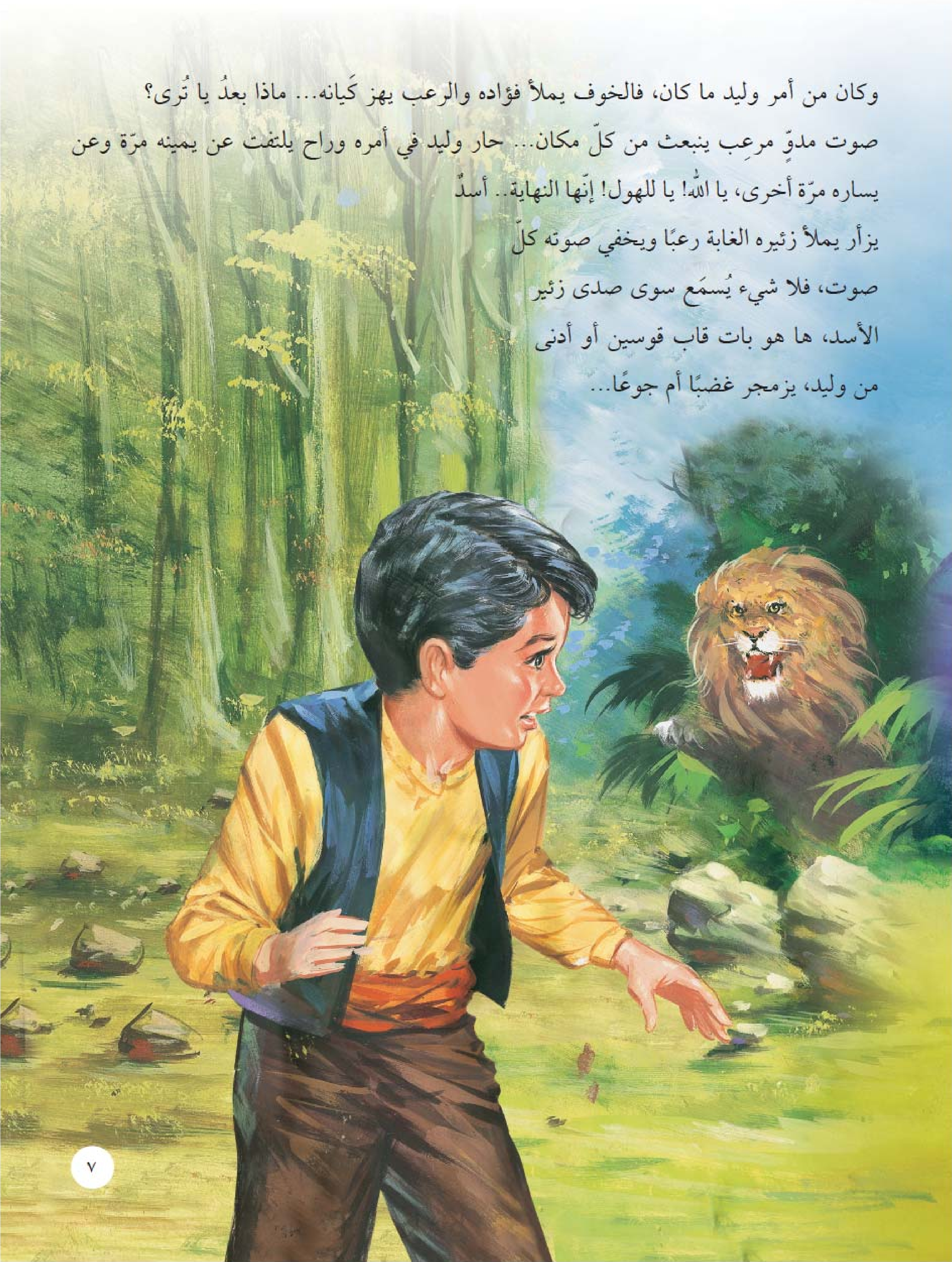
اختلف الأخوان من جديد، وسلك كلّ منهما طريقًا غير طريق صاحبه.

فافترقا وانطلقا وكان ما كان...

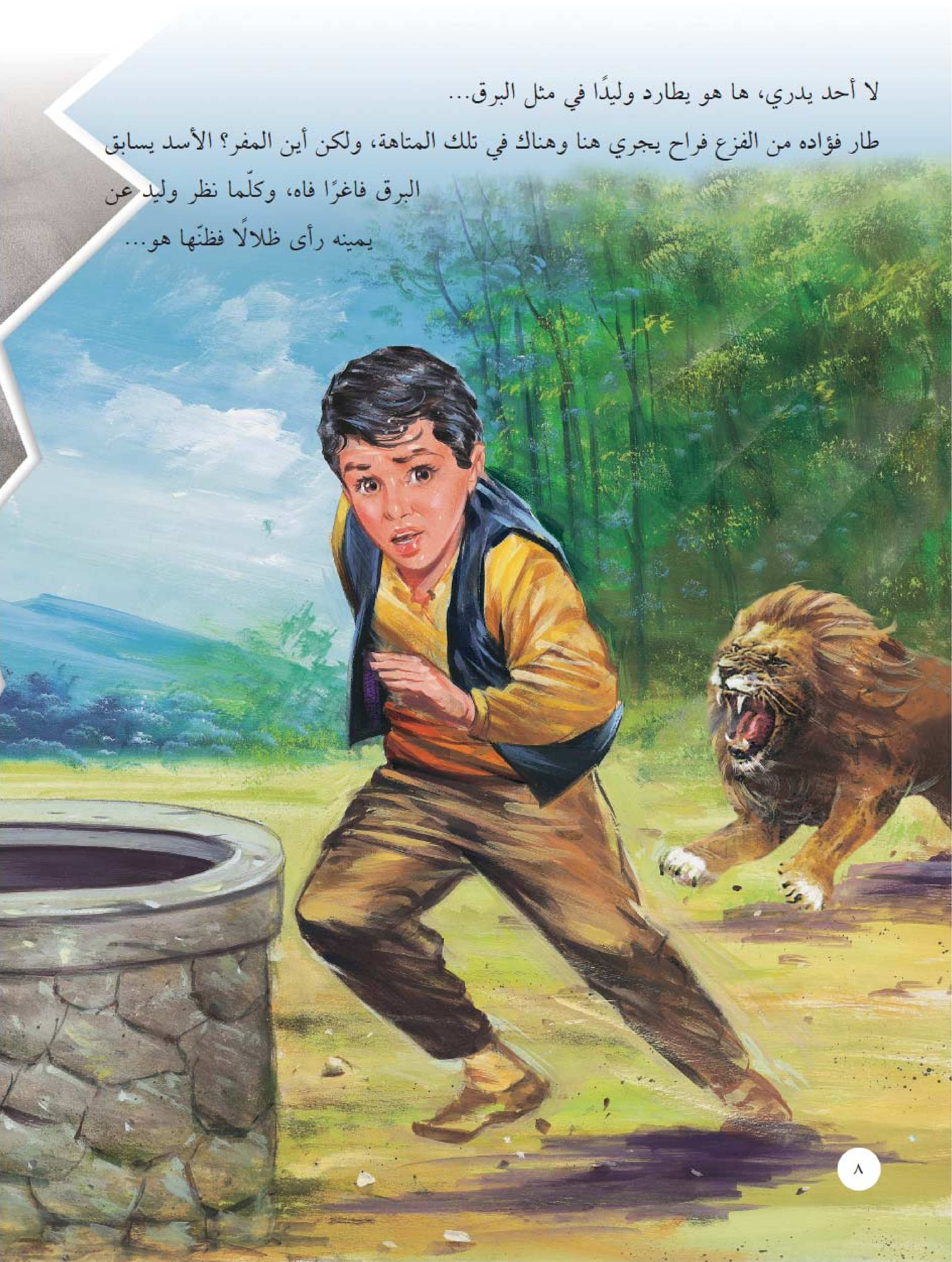
ومضى وليد هائمًا على وجهه لا يهتدي إلى شيء، يقطع مسافات شاسعة في طرق وعرة، ويسبح في الجداول تارةً وفي وديان من الرمال تارةً أخرى، تسلق ما لا يحصى من الهضاب...

وكانت المفاجأة... إنّه الآن وقد خرج من تلك المتاهة يقف في مكان من تلك الغابة بين يدَي مروج خضراء لها أول وليس لها آخر، يسود تلك المروج صمت رهيب...





وكان من أمر وليد ما كان، فالخوف يملأ فؤاده والرعب يهز كَيانه... ماذا بعدُ يا تُرى؟ صوت مدوٍّ مرعِب ينبعث من كلّ مكان... حار وليد في أمره وراح يلتفت عن يمينه مرّة وعن يساره مرّة أخرى، يا اللهُ! يا للهول! إنّها النهاية.. أسدٌ يزأر يملأ زئيره الغابة رعبًا ويخفي صوته كلّ صوت، فلا شيء يُسمَع سوى صدى زئير الأسد، ها هو بات قاب قوسين أو أدنى من وليد، يزمجر غضبًا أم جوعًا...



لا أحد يدري، ها هو يطارد وليدًا في مثل البرق...

طار فؤاده من الفزع فراح يجري هنا وهناك في تلك المتاهة، ولكن أين المفر؟ الأسد يسابق البرق فاغرًا فاه، وكلّما نظر وليد عن يمينه رأى ظلالًا فظنّها هو...

ونجا وليد من فكَّي الأسد ليسقط فيما هو أدهى وأمرّ، تعثّر وليد فهوى في بئر غائرة لا يكاد يسمع فيها سوى صدى يتردد في جنباتها، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار...

وكان في جنبات البئر عروق أشبه بأغصان الشجر، إنّها طوق النجاة الذي تعلّق به وليد، فقاع البئر تحته، والأسد من فوقه، وشبح الموت يطارده ولا يفارقه...

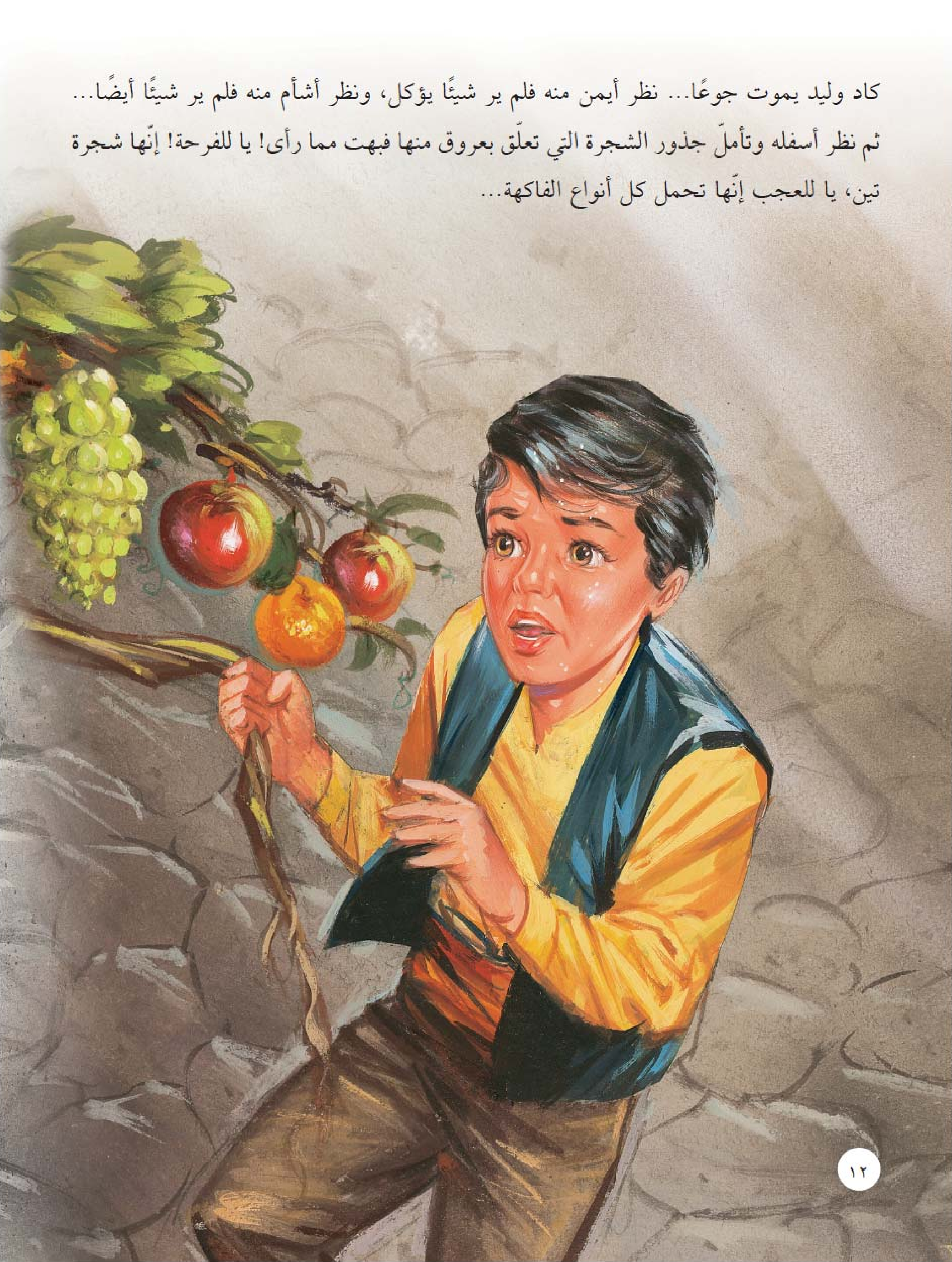


تسمَّر وليد على تلك العروق، ولا طاقة له بفعل شيء، ولا شيء يمكنه فعله سوى التعلّق بأهداب تلك العروق الناتئة من جدران البئر... وبينما هو في شرّ من الموت لمع في عينه ما لا يميزه من حلك الظلام إلا أنّ بياض بعضه وسواد بعضه الآخر أماط اللثام عن هذا الوافد في مجاهيل ذلك العالم... هناك في غيابة الجبّ كان الأبيض الأسود يقترب ويقترب... ما هذا؟ فأرة لا بل اثنتان، أحدهما أبيض والآخر أسود، وراح الأبيض يقضم جذوع الشجرة من عن يمينها والأسود يفعل فيها فعله من عن شمالها...

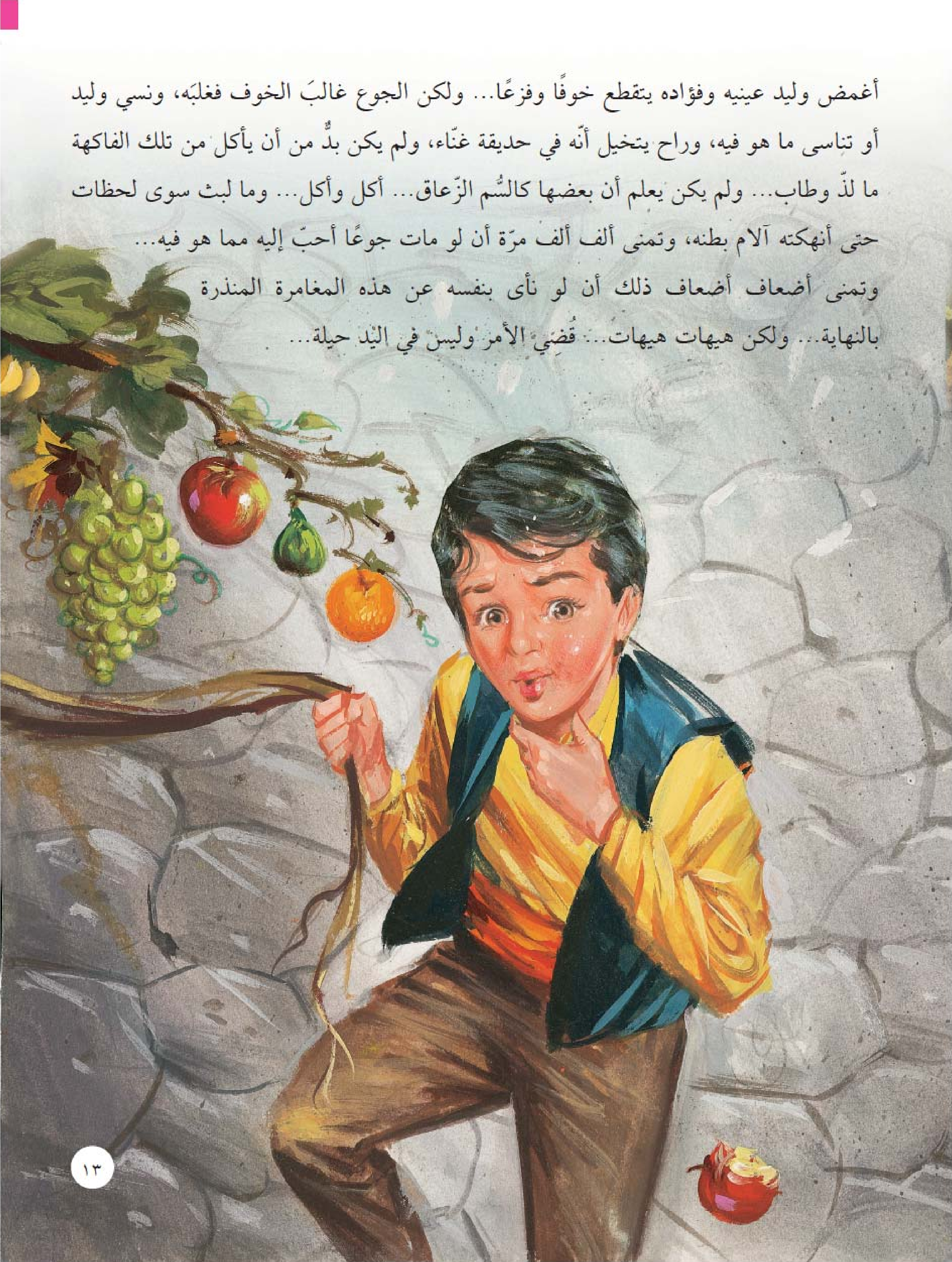


أيقن وليد أن الموت يأتيه من كلّ مكان... فالأسد فوقه يتضوّر جوعًا، وطوق النجاة يكاد يتمزق، يا الله! إنَّها لإحدى الكُبَر... ها هو تنين يسدّ طرفا فكيه قاع البئر، فالتنين يتلوّى على أحرّ من الجمر، يأمل أن تخر فريسته، والأسد يزأر من فوقه، وشرّ من هذا وذاك تلك العقارب وعِدّتها كعدة قوم يأجوج ومأجوج، ها هي تزحف على جوانب البئر.





كاد وليد يموت جوعًا... نظر أيمن منه فلم ير شيئًا يؤكل، ونظر أشأم منه فلم ير شيئًا أيضًا... ثم نظر أسفله وتأملّ جذور الشجرة التي تعلّق بعروق منها فبهت مما رأى! يا للفرحة! إنّها شجرة تين، يا للعجب إنّها تحمل كل أنواع الفاكهة...

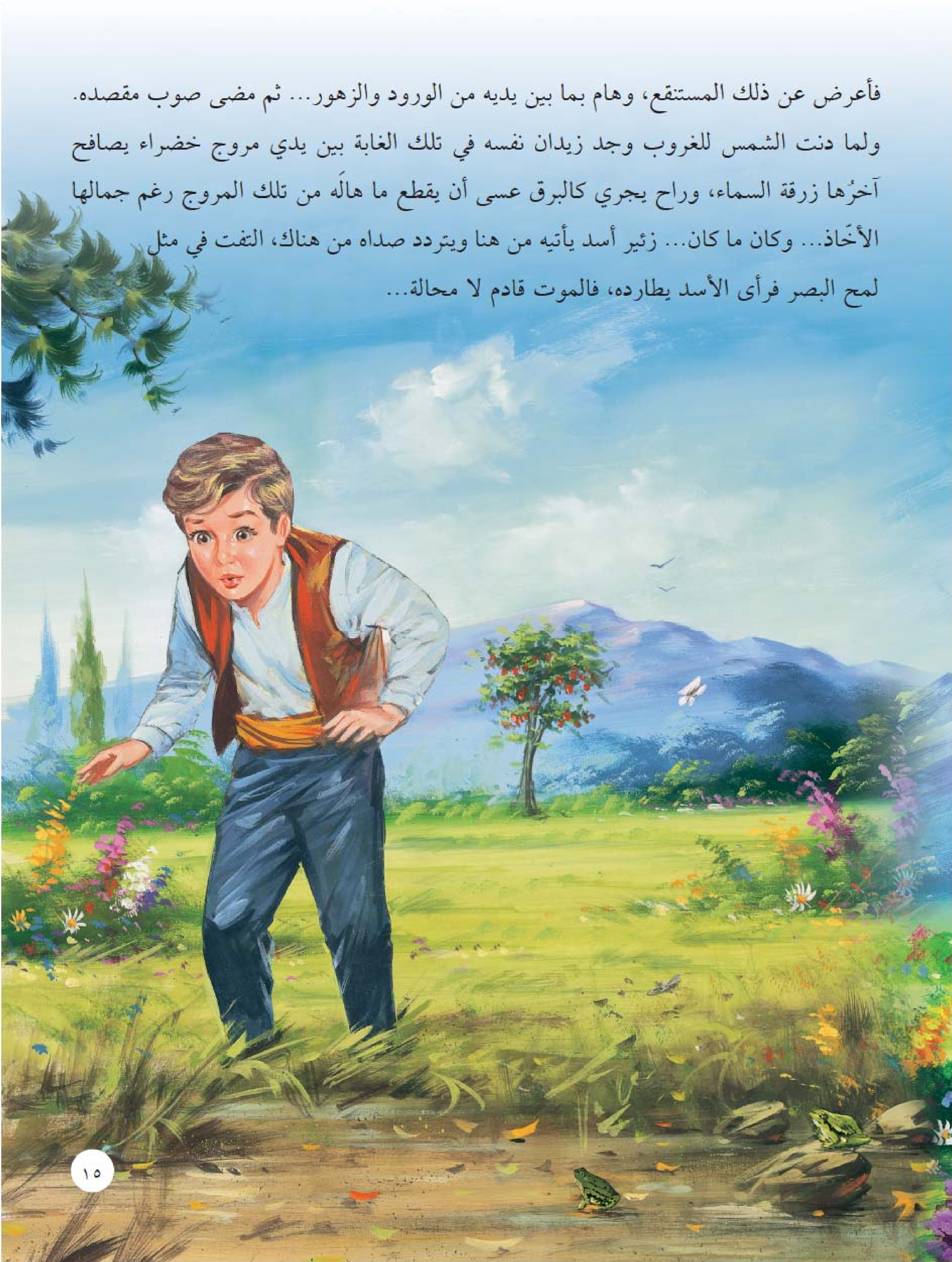


أغمض وليد عينيه وفؤاده يتقطع خوفًا وفزعًا... ولكن الجوع غالبَ الخوف فغلبَه، ونسي وليد أو تناسى ما هو فيه، وراح يتخيل أنّه في حديقة غنّاء، ولم يكن بدٌّ من أن يأكل من تلك الفاكهة ما لذّ وطاب... ولم يكن يعلم أن بعضها كالسُّم الزّعاق... أكل وأكل... وما لبث سوى لحظات حتى أنهكته آلام بطنه، وتمنى ألف ألف مرّة أن لو مات جوعًا أحبّ إليه مما هو فيه... وتمنى أضعاف أضعاف ذلك أن لو نأى بنفسه عن هذه المغامرة المنذرة بالنهاية... ولكن هيهات هيهات... قُضِيَ الأمر وليس في اليَد حيلة...

وأين هو زيدان الآن...؟ كان زيدان قد اختار الطريق الأيمن، لم يضِق ذرْعًا بالقوانين، فمضى في أمان وسلام وثقةٍ واطمئنان، يستمتع بما حوله من مناظر خلابة وجمالٍ ساحر...

وبينما كان زيدان يعبر أحراش تلك الغابة مرّ بحديقة يتوسّطها مستنقع مظلم، رائحته تزكم المارّة، فقال في نفسه: دع عنك هذا، واملأ عينك وقلبك بالحسن والجمال من كلّ شيء،





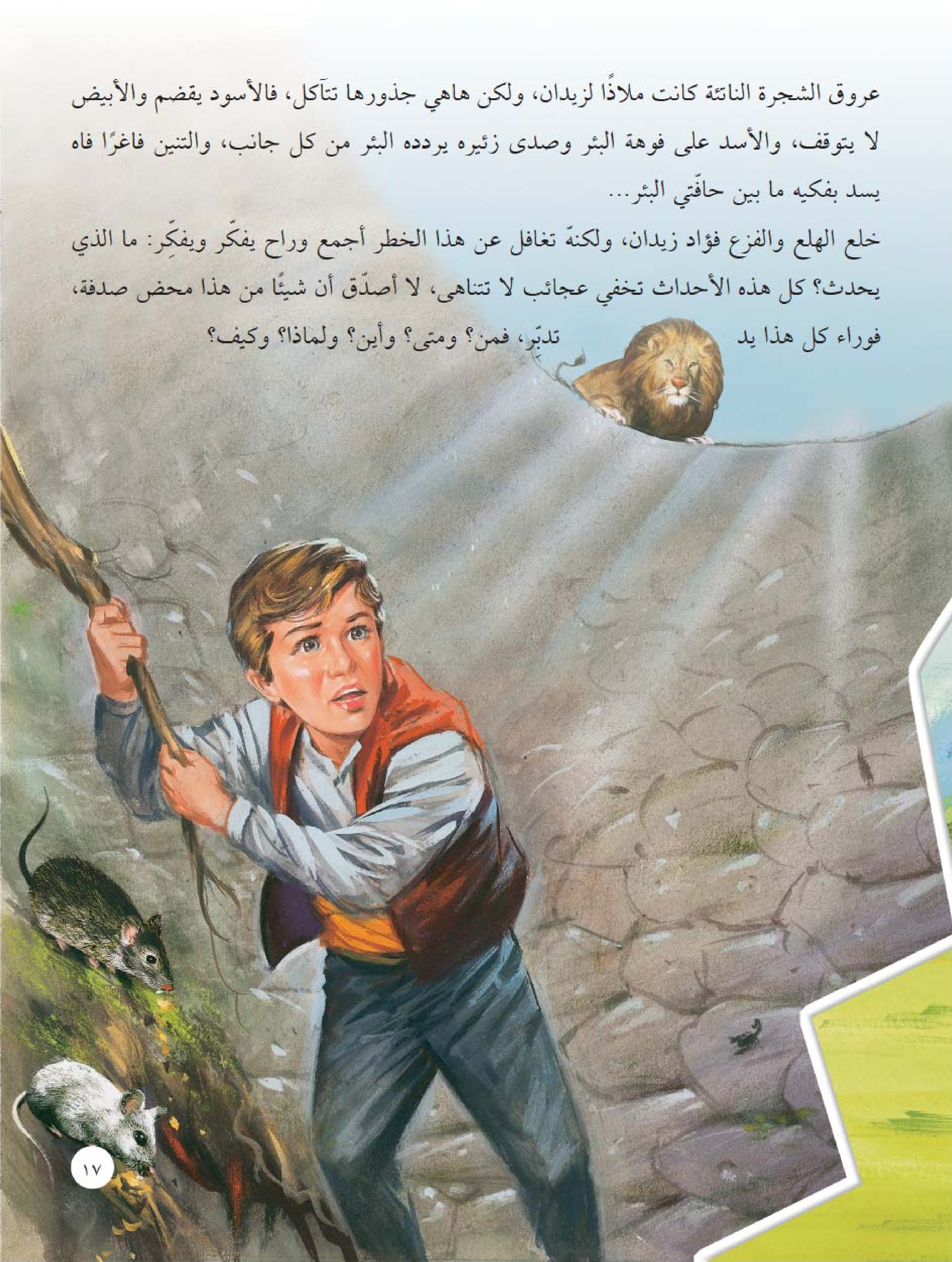
فأعرض عن ذلك المستنقع، وهام بما بين يديه من الورود والزهور... ثم مضى صوب مقصده. ولما دنت الشمس للغروب وجد زيدان نفسه في تلك الغابة بين يدي مروج خضراء يصافح آخرُها زرقة السماء، وراح يجري كالبرق عسى أن يقطع ما هالَه من تلك المروج رغم جمالها الأخّاذ... وكان ما كان... زئير أسد يأتيه من هنا ويتردد صداه من هناك، التفت في مثل لمح البصر فرأى الأسد يطارده، فالموت قادم لا محالة...



زيدان: كلّ شيء ههنا عجيب غريب، فربما كانت هذه الأرض ملكًا لملك عظيم، ولا عجب أن يكون هذا الأسد من جنوده وسدَنته...

ولكن الهروب هو الحلّ...

هرب زيدان والأسد من ورائه، وكاد يأخذه أخذ الجائع الجشع، وكان ما كان، فهوى زيدان في بئر سحيق، وكأنه البئر الذي سقط فيه أخوه من قبل...



عروق الشجرة النابتة كانت ملاذًا لزيدان، ولكن هاهي جذورها تتآكل، فالأسود يقضم والأبيض لا يتوقف، والأسد على فوهة البئر وصدى زئيره يردده البئر من كل جانب، والتنين فاغرًا فاه يسد بفكيه ما بين حافّتي البئر...

خلع الهلع والفزع فؤاد زيدان، ولكنّه تغافل عن هذا الخطر أجمع وراح يفكّر ويفكِر: ما الذي يحدث؟ كل هذه الأحداث تخفي عجائب لا تتناهى، لا أصدّق أن شيئًا من هذا محض صدفة، فوراء كل هذا يد تدبِّر، فمن؟ ومتى؟ وأين؟ ولماذا؟ وكيف؟

زيدان: اللهُ أكبر! ما هذه الشجرة؟! إنّها شجرة تين، وا عجبًا فيها من كلّ أنواع الفاكهة... من هو هذا القوي العظيم الكريم، الذي أنبت شجرة كهذه في مكان كهذا؟

زيدان بأعلى صوته: هيه! أيها المالك العظيم، من أنت؟ عرّفني بنفسك لقد أبهرتني صنعتك.

زيدان: ما هذا؟ يا اللهُ! ها هي جدران البئر تتصدع وتتباعد، وفك التنين يغدو بابًا مفتوحًا على مصراعيه، ومن ورائه حديقة خلابة معشوشبة بعشب أخضر تزينها الأزهار بكل الألوان، والأرض غدت كأنها بساط فيها من كلّ نقش ولون، وآلاف الفراشات بألوانها الفريدة ترفرف، والأسد غدا حصانًا أبيض له ألف جناح وجناح، يطير ويحلّق نحو الحديقة...



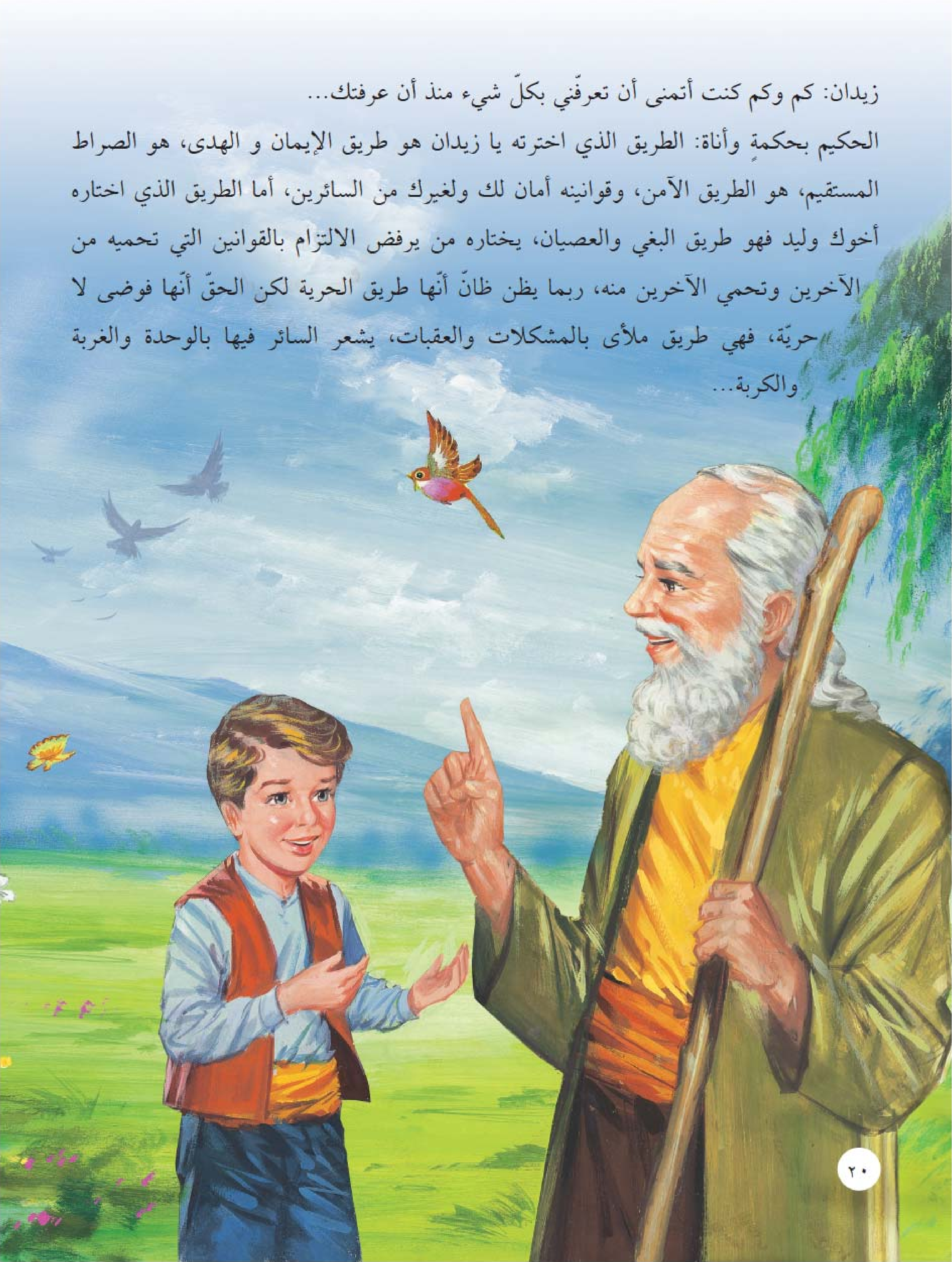


في هذه المشاهد الرائعة كانت تختلط عنده مشاعر الخوف بالفرح... يا ليت لي مثل هذا الحصان لأمتطيه فأطير إلى أهلي...

عندها ظهر له رجل من بعيد، من هو يا تُرَى؟ شيخ وقور أبيض الشعر، إنّه هو، هو الحكيم الذي نصحني قبل بضعة أيّام.

زيدان: يا عمّ، كنت تعلم كلّ شيء من البداية، أليس كذلك؟

الشيخ وهو يبتسم: بلى يا زيدان، واليوم حان الوقت لتعرف الحقيقة أنت أيضًا.



زيدان: كم وكم كنت أتمنى أن تعرّفني بكلّ شيء منذ أن عرفتك...

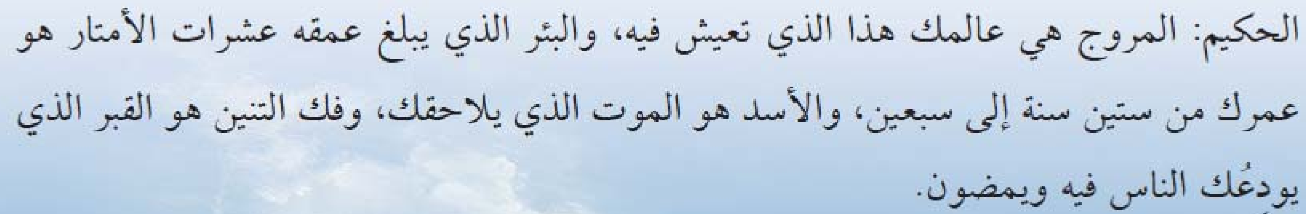
الحكيم بحكمةٍ وأناة: الطريق الذي اخترته يا زيدان هو طريق الإيمان و الهدى، هو الصراط المستقيم، هو الطريق الآمن، وقوانينه أمان لك ولغيرك من السائرين، أما الطريق الذي اختاره أخوك وليد فهو طريق البغي والعصيان، يختاره من يرفض الالتزام بالقوانين التي تحميه من الآخرين وتحمي الآخرين منه، ربما يظن ظانّ أنّها طريق الحرية لكن الحقّ أنّها فوضى لا حريّة، فهي طريق ملأى بالمشكلات والعقبات، يشعر السائر فيها بالوحدة والغربة والكربة...



زيدان: حدّثني يا عمّ، ما خبر تلك الحديقة العجيبة الشأن التي مررت بها؟ وكان يتوسطها ذاك المستنقع الكريه؟

الحكيم: المجتمع يا بني تجد فيه الصالح والطالح، تلك هي الحديقة والمستنقع، فالسعادة كلّ السعادة في اختيار طريق أهل الصلاح.

الحكيم: وماذا عن الأسد في تلك المروج الواسعة وما حكاية البئر والتنين؟



الحكيم: المروج هي عالمك هذا الذي تعيش فيه، والبئر الذي يبلغ عمقه عشرات الأمتار هو عمرك من ستين سنة إلى سبعين، والأسد هو الموت الذي يلاحقك، وفك التنين هو القبر الذي يودِعُك الناس فيه ويمضون.

زيدان: يا عمّ، لقد انفرج فكّ التنين حتى غدا بابًا مفتوحًا على مصراعيه!

الحكيم: نعم يا زيدان، بإيماننا يغدو الموت قاطرةً تحملنا إلى من نحب ويُفتح لنا في القبر باب إلى الجنة...

زيدان: والعقارب التي تموج على جدران البئر كأنها قوم يأجوج ومأجوج، ما شأنها؟

الحكيم: تلك هي العقبات والمصائب التي يبتلينا الله بها في هذه الحياة...

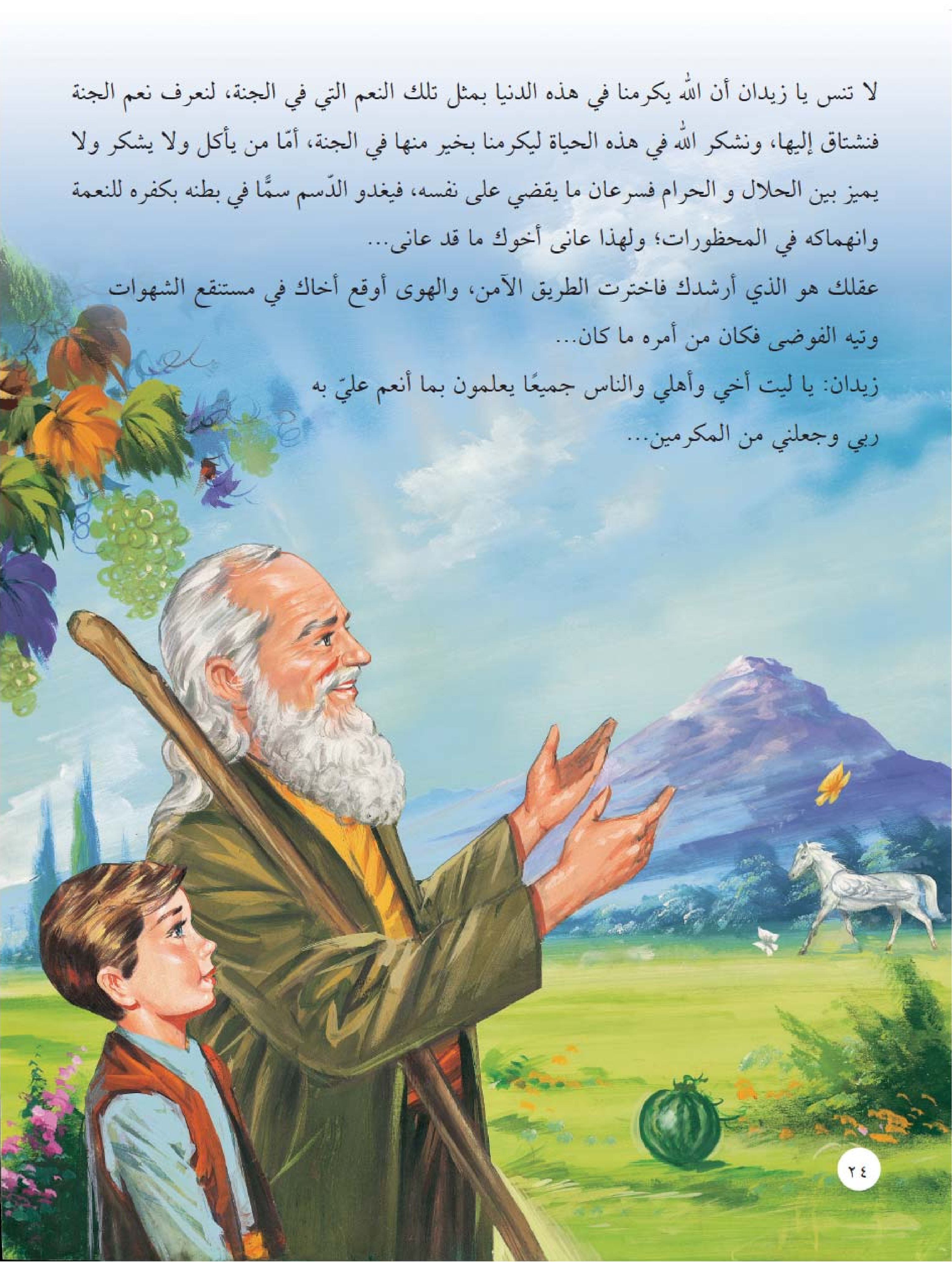


زيدان: وماذا عن الفئرين وهما يقضمان جذور الشجرة؟

الحكيم: هما الليل والنهار يتعاقبان، فيأكلان شجرة العمر حتى آخرها.

زيدان: وما شأن شجرة التين؟ وكيف كانت تثمر كل أنواع الفاكهة؟

الحكيم: أنواع الفاكهة التي على الشجرة هي نعم الله علينا، وما أكثرَها (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا) أليس كذلك يا زيدان؟



لا تنس يا زيدان أن الله يكرمنا في هذه الدنيا بمثل تلك النعم التي في الجنة، لنعرف نعم الجنة فنشتاق إليها، ونشكر الله في هذه الحياة ليكرمنا بخير منها في الجنة، أمّا من يأكل ولا يشكر ولا يميز بين الحلال و الحرام فسرعان ما يقضي على نفسه، فيغدو الدّسم سمًّا في بطنه بكفره للنعمة وانهماكه في المحظورات؛ ولهذا عانى أخوك ما قد عانى...

عقلك هو الذي أرشدك فاخترت الطريق الآمن، والهوى أوقع أخاك في مستنقع الشهوات وتيه الفوضى فكان من أمره ما كان...

زيدان: يا ليت أخي وأهلي والناس جميعًا يعلمون بما أنعم عليّ به ربي وجعلني من المكرمين...